# الفصل الرابع

## المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك، في البراديم كولن

"كان شعار نيوتن في عزلته هو:

العمل، والعمل، ومزيدا من العمل"

(كريستيانس، إسحاق نيوتن والثورة العملية)

obeikandl.com

obeikandl.com

# المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك، في البراديم كولن

## مدخل إبستمولوجي

إنَّ البحث في العلاقة بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل... يقودنا إلى مجالات معرفية خِصبة، منها: فلسفة التربية، وعلوم السلوك، والإبستمولوجيا، ونظرية المعرفة؛ ثم يدفعنا، ضرورةً، إلى البحث في اللغة والمنطق، وفي مناهج بحوث الفعل،[1] وفي التربية بالخبرة،[2] والحرية للتعلُّم[3]... وغيرُها من المداخل كثير.

وإنَّ المتفكِّر في كلام الله تعالى لَيجِد منطلقات مغريةً للغوص في هذه الإشكالية، باعتماد التحليل والتركيب والمقارنة، ثم البناء الإبداعيِّ المركَّب، غير المختزل...

ومن المقاربات التي اقترحتُها منذ أمدٍ، ما يُعرف ببحوث الرشد، والرشاد، والترشيد... وما يترتب عليها من مفاهيم، وما يلتصق بها من مصطلحات.

---

١ بحوث الفعل (action-research)، تنسب إلى لوين، ثم طورها كولب وغيرهما.

٢ التربية بالخبرة ((experiential learning، تنسب إلى ديوي ثم بياجي، يعمل بها بخاصة مشروع مدارس شنايدر.

٣ مقاربة الحرية للتعلم (freedom to learn)، تنسب لكارل روجرس، وتعمل بها العديد من المدارس العالمية، وقد اعتمدتاها في المدرسة العلمية الجديدة، في الجزائر.

obeikandi.com

لقد وُلدت مقاربة الرشد ضمن بناء معرفيّ منهجيّ متكامل، يُعنى بإشكالات التخلُّف والحضارة، ومقاربات الفعالية والتفعيل، ونظريات الكفاءة واللاكفاءة... وغيرها مما طوَّره العلماء من أمثال: بوبر، وابن نبي، وبيترز، ولوين، وكولن... كلُّ ذلك لهدف واحد هو: تأسيس "منظومة معرفية رشيدة"، تعنى بالمداخل الواردة أعلاه مجملةً: الحضارة، والتربية، والثقافة، والفكر، والفنُّ، واللغة، والمنطق...

في هذا النسق رأيت أنَّ سورة الكهف -من كلام الله سبحانه وتعالى- هي سورة الرشد بامتياز، وهي المرجع الأساس لكلِّ منظومة فكرية قرآنية مهما كان نوعها، وهذا لا يستثني -طبعا- السور الأخرى، التي عالجت المعرفة وعلاقتها بالسلوك، مثل سورة: البقرة، والنجم، والجن... بل، ولا يلغي أيَّ آية من القرآن الكريم من دفَّته إلى دفَّته...

ففي سورة الكهف ذُكر مصطلح الرشد أربع مرات، وهي قوله تعالى:

في معرض الحديث عن الفتية أصحابِ الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾(الكهف: ١٠)

في نفس السياق مخاطبا رسوله الكريم: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾(الكهف:٢٣-٢٤).

في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(الكهف:٦٦).

أما بصيغة اسم الفاعل "مرشدا"، فوردت في تقرير دلالةٍ عقدية وقانونٍ رباني يضبط جدلية الهداية والضلال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾(الكهف:١٧).

قد لا يسعفني هذا الفصل[١] في بسط هذه السياقات كلِّها، ولعلَّ ذلك يليق أن يكون مؤلفا مستقلا، بل ملتقى عالميا، ودورة تدريبية متخصِّصة، تعالج الموضوع من مختلف الجوانب، وبمختلف المناهج.

أمَّا هذه العجالة فتقتصر على قصَّة الخضر مع موسى عليهما السلام، من خلال فكر المجدِّد المصلح محمَّد فتح الله كولن... وهذه القصَّة هي مدرسة في المنهج والموضوع،[٢] وهي معدنٌ لمبادئ التعلم، ولتقنيات التعليم، ولأبعاد العلم، ولفلسفة العلوم، ولمستويات المعرفة، وللعلاقة بين الفكر والفعل... مما لا يحصى.

## نظرية التعليم في قصة الخضر وموسى عليهما السلام:

إنَّ قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا...﴾(الكهف:٦٥)، يأخذ أبعادا مختلفة:

علَّم الله سبحانه الخضرَ من "لدنه" علما، بعدما آتاه رحمة من "عنده"، وكلٌّ من "اللدنية" و"العندية" في فلسفة العلوم هي جوهر الحقِّ ومعدن الصواب، وبخاصَّة أنها "لدنية" مطلقة و"عندية" ذاتية، لا يحدُّها حدٌّ، ولا يحصرها أحدٌ...

يجمع "كولن" بين "اللدنية" و"الفعالية" في مقاله المعنون بـ"الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي"، ويقول:

"فالإيمان الذي هو كشجرة طوبى تنشأ من هذه البذرة فتغطي بما تؤتي من ثمار المعرفةِ سماءَ حسِّ الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تستحيل العلوم

١ هذا الفصل ألف محاضرة لملتقى حول فكر الأستاذ فتح الله كولن، بعمَّان، عاصمة المملكة الأردنية؛ ثم نشر كاملا في المجلة الاسكندنافية الإلكترونية المحكَّمة، وضمَّنته هذا الكتاب؛ لأنه في عمق الأعماق منه، بل لعله كان المنطلق في التفكير في هذا الكتاب.

٢ انظر: محمد فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان؛ تفسير آيات من سورة الكهف.

obeikandi.com

والمعارف كلُّها إلى العشق والاشتياق والحرص بحملة داخلية وشعور وحسٍّ داخليٍّ، ليحاصِر ذاك الإنسانَ من كلِّ جهة، فيصيِّره إنسانًا جديدًا قائمًا على محور الوجدان... فتنعكس هذه الحالُ على كلِّ سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق. فتحمل عبادتُه وطاعته سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك العشقِ والاشتياق، وتصير مناسباتُه البشرية انعكاساتٍ لهذه "اللدنية"... وتتمحور حملاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلُّها، حول هذه القوة الجاذبة "إلى المركز..."[١].

الحقُّ أنه لمَّا أدرك "موسى" هذه الأبعاد وأبعادا أخرى لا يتسنى لنا تصوُّرها، بله إدراكها، وهو النبيُّ الموحَى إليه، لم يتردَّد لحظة في طلب العلم "اللدنيّ" من هذا الرجل الذي أخذه من المصدر مباشرة بلا واسطة؛ فما كان من "موسى" إلاَّ أن ترك سفره وودَّع غلامه، ليبدأ رحلة علمية فعلية، كانت انطلاقتها سؤالا واضحا: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، ولو أنَّ الآية توقَّفت هنا لاكتمل المعنى، ولكان طلب "موسى" مقتصرا على "المعلومات"، وعلى "العلم النظريِّ"، بعيدا عن الخبرة، والواقع، والحياة؛ لكنه أضاف كلمة كانت السرَّ والمفتاح المعرفيَّ لهذه التجربة الفريدة.

الكلمة هي: "رُشدا".

والرشد فسَّره القدامى بأنه: "إصابة الخير"،[٢] و"الدليل على الهدى"،[٣] وأنه "الإيمان المخالف للغيّ"،[٤] استنباطا من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦).

١ مجلة "ياني أميد"، نقلا عن موقع الأستاذ، http://ar.fgulen.com/content/view/13/101/

٢ الآلوسي: روح المعاني؛ تفسير سورة الكهف، الآية ٦٦.

٣ الطبري: جامع البيان؛ تفسير سورة الكهف، الآية ٦٦.

٤ اطفيش: هميان الزاد؛ تفسير سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

أمَّا الشعراوي فقد وجَّه المعنى توجيها جديدا بديعا، وجعل الرشد بمعنى "حسن التصرف في الأشياء، وسداد المسلك في علَّة ما أنت بصدده".[١]

لو تجاوزنا نظريات "التعلُّم" الكلاسيكية،[٢] التي تقصر عملية التعليم على "نقل المعلومات مِن وإلى"، فإننا نلتقي بمدارس قائمة بذاتها، تجعل التعلم مقرونا بالخبرة وبالتجربة، يقول سِنج: "حين نتعلم فإننا نعيد صناعة حياتنا من جديد، ونصبح قادرين على فعل أشياء كنا عاجزين عن فعلها قبلُ، ونغيّر طريقتنا في النظر إلى العالَم ومنهجَنا في التفاعل معه، ونطوّر مقدرتنا على الإبداع".[٣]

ويضيف بوراسا وآخرون عنوانا دالا هو: "أن نغيّر يعني أننا نتعلم" (Changer signifie apprendre).[٤]

هل ما قاله "سنج وبوراسا" وغيرهما أعمق مما ورد في كلام الله تعالى مختصرا عميقا دقيقا، في كلمة واحدة هي: "الرشد"؟

طبعا، شتان بين هذا وذاك، وفرقٌ ما بين كلام الخالق وكلام المخلوق.

لنتأمَّل تعريف الشعراوي، الذي وظَّف كلمات مفتاحية هي: "الحسن"، و"التصرف"، و"السداد"، و"المسلك"، و"العلة"... ثم ختمها بالبعد الزمني والمكاني لمدلول الرشد، بقوله: "في علَّة ما أنت بصدده"، أي أنّ تعليم الرشد يَعتبر "حالةَ المتلقي النفسية والاجتماعية والمعرفية، وظروفه الزمانية والمكانية"،[٥] أمَّا التعليم غير المعتمد على الرشد فيقتصر على

---

١ الشعراوي: خواطر إيمانية؛ تفسير سورة الكهف، الآية ٦٦.

2 انظر: B. Bourassa et autres: Apprendre de son experience, chapitre1: l evolution de la conception de l apprentissage, pp7-14. presse de l université de Quebec, 2007

3 Peter M. Senge: La cinquième discipline; Paris. 1991, p30

4 Op cit: p88

٥ باباعمي: مراعاة الظروف والأحوال في تفسير الآية القرآنية، دبلوم دراسات عليا، معهد أصول الدين، الجزائر؛ ١٩٩٤م.

المعلومات مفصولة عن الواقع، وهذا ما يولِّد حالة انفصام وفصام.

ولعمري إنَّ هذه هي إشكالية المسلمين اليوم، إنها إشكالية الانفصام بين العلم والعمل، بين الفكر والفعل، بين الدين والدنيا... ولقد عالجها الكثيرون، تحت مسمَّيات مختلفة، منها: الفعالية، والمنطق العملي، والتوجيه العملي، والمنهج السلوكي، والأزمة المعرفية...

ومن أبرز من أبدع في تحليل هذه الإشكالية، واجتهد في تشخيصها أولا، ثم دفع إلى التحرر منها ثانيا، وأقام ـ بالفعل ـ صروحا حضارية ثالثا... المفكِّرُ الأستاذُ "محمد فتح الله كولن".

ففي كتاب "التلال الزمردية"، يقول في ثنايا معالجته لموضوع المعرفة:

"إنَّ أُولى مراتب المعرفة هي رؤية تجلِّيات الأسماء الحسنى، المحيطة بنا إحاطة تامَّة وحدسُها، ومشاهدةُ إقليم الصفات الجليلة المثير للإعجاب، فيما وراء انفراج أبواب الأسرار بهذه التجليات".

ولكنَّ الأستاذ لا يتوقَّف عند هذه المحطَّة التي كثيرا ما توقف عندها الكتَّاب والمفسِّرون، بل يواصل المسار والطريق، ويقول:

"ففي أثناء هذه السياحة تسيل الأنوار من عيون السالك وأذنه إلى لسانه، ويشرع قلبُه بالهيمنة على سلوكه، ويغدو سلوكه وأطواره لسانًا ناطقًا بتصديق الحقِّ سبحانه والإعلان عنه، حتى يتحوَّل هذا اللسان كقرص مرن لـ"الكلمة الطيبة".. وإذا بأنواع من أنوار مشعة تنعكس، كلَّ آن، عن شاشة الوجدان من الحقيقة المنوّرة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(فاطر:١٠)".

## المراحل السبعة لتحويل المعرفة إلى سلوك

لو سطَّرنا مراحل المعرفة حتى نصل بها إلى الفعل الحضاري، من خلال هذا الاقتباس الساطع في فكر السيد كولن، فستكون كالآتي:

**١. معرفة الحق سبحانه حق المعرفة**[١]:

من خلال رؤية أسمائه الحسنى، مما عبَّر عنه بـ"رؤية تجليات الأسماء الحسنى"، وللأسماء الحسنى في فكر كولن مكانة خاصَّة،[٢] إذ لا يعدُّها مجرَّد كلمات وألفاظا، وإنما يصنع منها سلالم للرقيُّ الروحيُّ والوجدانيُّ، ويبدع بها أسبابا للسمو العقليِّ والحركيِّ.

ثم حدسُ هذه الأسماء، وفرقٌ كبير بين الرؤية الحسية الظاهرية اللغوية العقلية، والحدس المعنوي الباطني الإيماني القلبي...

معرفة صفاته تعالى بعد إدراك أسمائه الحسنى، وهذه الصفات -لعظمتها- تعتبر إقليما مثيرا للإعجاب لمن وعى وتفكَّر.[٣]

ثم الاجتهاد في النظر إلى الأسرار والتجليات، لا إلى المظاهر والمعلومات... خلافا للكثير من مناهجنا التربوية والدعوية التي تقتصر على المعاني الخارجية العقلية العامَّة، غافلة الدلالات الخفية العميقة القلبية الخاصَّة، يقول "فونستراماخر": "اختبار حالات التعلم تجعلنا نكتشف أنَّ اعتقاد الشخص يتدخل بصورة أساسية في التلقي، وفي تطبيق

---

١ يقول في مكان آخر: "إن عبادة الله تعالى فعْل مترتب على معرفته سبحانه وتعالى"، مسجد بورنوا، ٤ فبراير ١٩٧٤؛ ترجمة أورخان محمد علي، موقع: http://ar.fgulen.com/content/view/749/117/.

٢ وانظر: كولن: قوة فاعلية أسماء الله الحسنى؛ مسجد بورنوا، ٦ يوليو ١٩٧٦.

٣ وانظر مثلا: كولن: النور الخالد؛ ج٣...وفيه حلل بعمق صفة الحلم لدى رسول الله ﷺ، وربطها بصفة الحلم عند الله تعالى، بأسلوب بديع.

المعرفة"،[1] يقول هذا وهو يتأسف أنَّ نظريات التعلم تقتصر على المعارف (Les savoirs) وتغفل المعتقدات (Les croyances).

**٢. انتقال المعرفة من المداخل إلى المخارج عبر العقل:**

يقول صاحب التلال:

"ففي أثناء هذه السياحة تسيل الأنوار من عيون السالك وأذنه إلى لسانه"، فالأعين والآذان مداخل للعلم والمعرفة، منها تعبر المدركات، سواء أكانت حسية أم عقلية، دلالية أم لغوية... ثم يأتي اللسان، وهو من أبرز المخارج لهذه المدركات، فيصف ما يحدث داخل العقل وفي سويداء القلب، بأخصر عبارة، وبأوضح بيان... ولا يشترط أن يكون الواصف الناطق عالما، لكن يكفي أن يكون صادقا، ولو كان صبيا، ليخرج من فؤاده أعجب المعاني، وأوسع الدلالات...

**٣. حركيةٌ من اللسان مباشرة إلى الجنان والقلب:**

تصير المعرفة بالإضافة إلى طابعها العقلي قلبية وجدانية سديدة، خلاف من يحبسها في الدور الفلسفي: "من الحواس إلى العقل، ثم من العقل إلى الحواس"، ويُلغي كلَّ ما كان وجدانيا، ويعتبره خارج دائرة الموضوعية، فيصنفه ضمن مسمَّى الذاتية التي لا تعدُّ علما عنده... وغنيٌّ عن البيان أنَّ هذا الانحراف ورَّث البشرية ضلالا، يقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩)؛ لأنهم عطَّلوها وحنَّطوها، ومن مات قلبه مات وجدانه.

**٤. تحرُّك آلة السلوك والجوارح:**

وهنا مربط الفرس، في فكر فتح الله، أي بعد كلِّ هذا الجهد المعرفيِّ

1 - Fenstermacher: The knowledge and the known. p 1994

النظريّ، هل تتحوَّل المعارف سلوكا، وهل يتمظهر العلم عملا وتطبيقا؟

أمَّا الأستاذ كولن فيعيد السبب إلى المقدّمات الأولى: فإذا كانت المقدِّمات صحيحة سليمةً كانت النتائج كذلك، وإذا كانت فاسدة سقيمة جاءت النتائج على إثرها كذلك.

وقلَّ من الناس من يغوص في الجذور؛ لأنَّ العديد من النظريات تسبح في الطرق والوسائل والمقارَبات، بعيدا عن المبادئ والمنطلقات، فتصيب جزءا من الحقيقة، ولكنَّها لا تدرك الحقيقة ناصعة كاملة لاشيةَ فيها.

وهذه المرحلة، الرابعة، مرحلة فارقة في تتبُّع **الحدِّ الفاصل للبراديم كولن** ذلك أنَّنا نصادف فكرًا بلا فعل، ونصادف فعلاً بلا فكر، كما أننا نجد في واقع المسلمين اهتماما بالفكر مقرونا بالفعل، لكن مع غياب عرض الوسائل والآليات، وبسط النماذج والتقنيات... فيبقى هذا العرض، على أهميته، حبيس الكتب والأوراق والأذهان، ولا يقفز إلى التمثل الواقعي الميداني الحضاري... أمَّا كولن فيختلف كلَّ الاختلاف عن كلِّ ذلك، والواقع شاهد على هذا الحكم.

**٥. تحوُّل السلوك والأحوال إلى لسان ناطق بتصديق الحقِّ:**

ينِدُّ عن العلوم المنطقية والعقلية وصفُ هذه المرحلة، ذلك أنها في سُلَّم المعرفة مرحلة عميقة جدًّا، لا ترضى بشاطئ الحياة مِثلَ أطفال صغار لا يُحسنون السباحة، بل تلِج مثل غوَّاص ماهر إلى أعماق بحارِ العقل، وإلى أغوارِ محيطاتِ القلب، فتتمثَّل لها الأفعال مجسَّدةً، في صورة أقوال وكلمات... كلُّ حركةٍ تساوي جملةً معبِّرة، وكلُّ فعْل يَعْدِل نصًّا مُحْكما... إلى أن تتوحَّد اللغاتُ جميعا -لغةُ العقل والقلب واللسان والجوارح- في لغة واحدة، هي لغة تصديق الحق تعالى، تحت مُسمَّى:

"الكلمة الطيبة"، وما أروع الدليلَ على ذلك في قوله جل من قائل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(فاطر:١٠).

**٦. بُدُوُّ ذلك في الأسلوب الإيمانيِّ الإيجابيِّ للفرد والمجتمع:**

لا شكَّ أنَّ من كانت أحواله، كما ذُكر، فإنه سيولَد إنسانا آخر، ليس على شاكلة كلِّ مولود يوميٍّ تتقاذفه رياح العصر، لكن على شاكلة النخلة السامقة المعطاء، فيكونون كما يقول الأستاذ "كولن":

ممن "يدفعون السيئة بالحسنة، وبالكلمة الطيبة، وبسلوك الإحسان، وبالقول اللين... فيقومون بذلك بإصلاح جميع السلبيات، ويقابلون الأفكار الهدّامة بحملات البناء"(مقال المؤمن لا يسقط وإن اهتزَّ، حراء، عدد ١٧).

**٧. ميلاد حضارة إسلامية هي حضارتنا الذاتية:**

كم من محاولة وتجربة خاضها العالم الإسلاميُّ في القرون الأخيرة، لاستعادة المكانة اللائقة بالأمَّة الإسلامية، غير أنها لم تصل الغاية، وإن كنَّا لا نقول عنها إنها فشلت، بل لعلَّها تكون بوادر وبواكير ومؤشِّرات للمستقبل... غير أنَّ الذي ينبغي أن ننتبه إليه اليوم، وقد تنبَّه له البعض، والذي ينبغي أن نعمل وفقه في منهج "الرشد"، هو: ذاتية التغيير، لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)، فكلُّ تغيير يأتي من الخارج هو تغيير لخلق الله، وهو تشويه لما أبدع الله.

وإذا ما توالت **مراحل تحويل المعرفة إلى سلوك**، وفق الخطوات السابقة، فإنَّ النتيجة تكون طبيعية، لا جدال فيها، يقول "فتح الله" في كتاب خصَّصه للحضارة:

"ينبغي أن يُستنفَر كلُّ مَنْ له قولٌ في الموضوع، ومهندسو عالمنا

الفكري خاصَّة، بروحية النفير العام إزاء خطب داهم، وتحويل البلاد من أدناها إلى أقصاها إلى مشاغل لثقافتنا الذاتية، ومدارس لفلسفة حياتنا الذاتية، ومختبرات تركيب وتحليل لمنطقنا ومحاكمتنا العقلية الذاتِيَتَين. فإنَّ بقاءنا بذاتيتنا يمر عبر انبعاثنا بذاتيتنا. فإذا تحرَّكنا بهذا الاتجاه، فسوف تكون ثقافتنا الرصينة، وجذورنا المعنوية والروحية، وشخصيتنا ومحتوانا، جزءًا لا يُستغنىَ عنه من الثقافة العالمية"(ونحن نبني حضارتنا، نسخة رقمية).

وللقارئ أن ينتبه إلى عناوين مؤلفات "الأوجا كولن"، فهي مرتَّبة بناء على هذه الخطوات السبع، بداية من بناء الذات، التي يمثِّلها كتابه "ونحن نقيم صرح الروح"، وانتهاءً ببناء الحضارة، الممثلة في كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، وفي عمق هذه المسيرة يقع "البيان"، ويُحتاج إلى "التلال الزمردية"، ويُستضاء بـ"النور الخالد"، ويُخطَّط لـ"جيل الحداثة"، فإذا ما وقعت الحيرة وكثرت الأسئلة اُحتيج إلى الجواب عن "أسئلة العصر المحيِّرة"، وهي في طبيعتها متجدّدة لا تنتهي، ما دامت الحياة جادة في هرولتها نحو الفناء ووجهة الخلود والأبد.

يمكننا أن نرسم هذه الخطوات السبعة، التي تعالج الإشكال الجوهريَّ لهذا الكتاب: كيف نحول المعرفة إلى سلوك، والعلم إلى عمل، والفكر إلى فعل؟ بالشكل الآتي:

لو تأمَّلنا الرسم البياني بعين البصيرة، فسنكتشف فيه سرًّا بديعا، وهو أنَّ "معرفة الحقَّ تعالى حقَّ المعرفة" هي المنطلق والأساس باعتبار، وهي المقصد والغاية باعتبار آخر، أو قُل هي في البداية بالنظر إلى مرحلة، وهي في النهاية بالنظر إلى مرحلة تالية...

وهذه الصفة التي عالجها وأبرَزَ معالمها الأستاذ، هي بمثابة "الدينامو"[١] (أي المولِّد) الكهرومغناطيسي، الذي يعرَّف أنه "عبارة عن آلة لإنتاج التيار الكهربيّ المستمر عن طريق الحركة، وهذه الفكرة معروفة لدى راكبي الدراجات حيث يتم تحويل الطاقة الحركية إلى طاقة كهربية". فإذا كان التيار هو الذي يضيء الليل، فإنَّه في سياقنا هو "تيار الإيمان"، و"تيار الحضارة"، والحركة عبارة عن "الاجتهاد" و"الجهاد"، فالإيمان الحقُّ يولِّد الفعل الموفَّق، والعمل الصادق يجدِّد الإيمان بالحقِّ.

## معالجات في أصول المعرفة والسلوك

عالجتْ آياتُ سورة الكهف، التي تعرَّضت لقصَّة موسى والخضر عليهما السلام، كلَّ الأصول النظرية للمعرفة والسلوك، فتناولت بداية أهمية الصبر في كلِّ عملية تعلُّم: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(الكهف:٦٧)، ثم بينَّت سبب عدم الصبر، وهو العجز عن إدراك حقائق الأمور وخفايا الأفعال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾(الكهف:٦٨).

ثم ركَّزت على إصرار المتلقِّي وعلى التحدِّي وسيلةً للتعلُّم، وسرًّا للنجاح: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾(الكهف:٦٩).

ولقد أبرز الأستاذ كولن ملامح الشخصية التي تجعل من العراقيل سُلَّمًا إلى المراقي والعظائم، وقال في مقال بعنوان "رجل القلب":

"لا يقع رجل القلب في اليأس أبدا من سوء النظام الموجود، ولا يهتزُّ أبدا حتى وإن وقف الناس أجمعون ضدَّه، بل ينهض بعزم أمام جميع

---

١ مخترع الدينامو هو زينوب جرامي (Zenob Gramm) ١٩٠١-١٩٢٦، وقد نفذ الفكرة أول مرة عام ١٩٧١م. وانظر: "Ouvrage collectif, "Le Trésor, dictionnaire des sciences © .Flammarion, ١٩٧١.

المصاعب، وهو يصُرُّ على أسنانه متحمّلا؛ لأنَّه يدرك أنَّ هذه الدنيا ليست بدار شكوى بل دار تحمُّل، يصبر ويبحث عن طرق بديلة لحل المشاكل التي تعترض طريقه، ولا يفتُر عزمه ولا إقدامه حتى في أحلك الظروف، بل يقوم بإنتاج إستراتيجيات مختلفة"(صورة قلمية لرجل القلب، حراء، عدد ١٤).

إنَّ العبارة الأخيرة في هذا النص لا تحث فقط على تحدِّي الصعاب، ومغالبة المشاكل، بل تدفع إلى إنتاج "استراتيجيات جديدة"، وهذا لا يكفي، بل ينبغي أن تكون "مختلفةً" عن الاستراتيجيات السابقة؛ لأنَّ من يطلب نتيجة بتكرار نفس الفعل الذي لم يُثمِر من قبلُ، فإنه يطلب المستحيل. وفي القاموس الصيني: "المجنون هو الذي يعيد نفس الفعل وينتظر نتيجة مغايرة".

## العلاقة بين المعلم والمتعلم، وأهمية الخبرة والتجربة

تعرَّضت آيات الكهف إلى ثقة المعلِّم في المتعلم، وبداية المشوار التعلُّمي-العملي، الفكري-الحضاريّ، بين الطرفين، فرغم أنَّ الخضر نفى عن موسى إمكانية الصبر إلاَّ أنَّ أسلوب الثقة سمح له باختبار ما قاله، إذ ليس الهدف هو إدراك الحقيقة فقط، لكنَّ الهدف الأساس هو معرفة منهج وطريقة الوصول إلى هذه الحقيقة، فالتعليم يركز على "القدرة على الإنتاج" (CP) لا على "المنتَج" (P)،[1] ويختصر البعض هذه الإشارة في المثل الصيني: "علِّمني كيف أصطاد، ولا تطعمني سمكا".

ثم تأتي مرحلة التعلُّم عبرَ الخبرة، وهي أن تعتبر عملية نقل المعلومة والمعرفة جزءًا من الحياة، لا عملية منفصلة عن الحياة، ولقد ركَّز كُلٌ من "رُواد نظرية بحوث الفعل"، وكذا نظرية "التعلُّم بالخبرة"، ومدرسة

1 - وانظر- Stephen R. Covey: Les sept Habitudes, First ed. 1996, p52

"شنايدر"، ومدرسة "ديفلين" ومنظِّرو "الذاتية في التعلم"... ومن قبلِهم المفكِّرون التربويون المسلمون، وقبل الجميع كلام الله تعالى... على ضرورة التعلُّم عن طريق الممارسة والخبرة والفعل، لا بمجرَّد نقل المعلومات، وشحنها، ثم حفظها، والاختبار فيها، ثم الانتقال إلى معلومات جديدة... فيتحوَّل صاحبها في الأخير إلى خزَّان للمعلومات، لا يملك القدرة الكافية على توظيفها، ولا تشغيلها في نسق آخر.

ولقد أبدع الأستاذ كولن في بيان صفات "الإنسان الجديد"، ووضع على رأسها صفة الاعتماد على التجربة جنبا إلى جنب مع اعتماده على العقل، فقال عنه:

"أجل، من بين هؤلاء الذين هجروا العقل والتفكير مندفعين خلف "الموضات" الفكرية دون أي تمحيص أو تدقيق، ومن ضمن الجماهير الفاقدة لوَعيها، الهائمة على وجهها، سيولد إنسان جديد كلَّ الجِدَّة، إنسان يفكِّر ويحاسب، ويوازن ويدقِّق، ويعتمد على التجربة قدْرَ اعتماده على العقل، ويثق ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر اهتمامه بالعقل والتجربة" (الإنسان الجديد، حراء، عدد ١١).

بل إنَّ الوجود كلَّه يتحول إلى فرصة للتعلُّم والتلقِّي: والمقصد هو "تحويل كلِّ مكان، سواء أكان مدرسةً أم مسجدا، شارعًا أم مسكنًا، إلى مراصد ترصد الحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان" (لدى استكشافنا خط السير، حراء، عدد ٤).

وينبغي أن نتنبه إلى أنَّ "الخطأ" في "الخبرة" جزء أساس من عملية التعلم والتعليم، فأخطاء موسى عليه السلام، رغم أنها وصفت بـ"عدم الصبر"، وبـ"النسيان"، وبـ"التسرع والاستعجال"... إلاَّ أنها كانت سببا لإدراك الحقائق

ووسيلة لتمثُّل المعارف، فمَن خاف مِن الخطأ لم يدرك الصواب، وقد قال عمر ﷺ: "**ستتقطَّع عُرى هذا الدين على يد أقوام لم يعرفوا الجاهلية**"، ولذا فإنَّ تعلُّم الصواب فقط، دون إدراك نقيضه، قد يؤدِّي إلى الجهل بالخطأ، وبالتالي إلى الوقوع فيه ضرورة. فارتكاب الخطأ طبيعةٌ في بني البشر، والفرق بين إنسان وآخر هو الاستعداد للتصحيح لدى البعض، وعدم تقبُّل التصويب لدى البعض الآخر، ولذا وصف الله تعالى هؤلاء بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾(البقرة:٢٠٦).

وأخيرا، انتهى هذا الفصل باستخراج المراحل السبعة للتلقي، ولتحويل المعلومة إلى معرفة، في فكر المجدِّد محمد فتح الله كولن، وتبين أنَّ نظرية المعرفة لديه تكتسي أهمية كبرى، مما يستدعي بحوثا متخصِّصة شاملة، تستقرئ جميع تراثه الفكريّ، وتقارنه بالمصلحين الآخرين، بحثا عن الخروج من مأزق اللافعالية في الفكر الإسلامي المعاصر، وإمعانا في تحويل المعرفة إلى سلوك، والعلم إلى عمل... وبهذا فقط تتحقق غاية الإسلام من العلم والمعرفة، وترتقي الأمَّة إلى مستوى الرشد المنشود، الذي أنزل القرآن الكريم ليهدي العالمين إليه، إنسيّه وجنّيه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

وإنا نعوذ بالله من علم لا ينفع، ونسأله أن يلهمنا رشدنا، ويهدينا سواء السبيل.

obeikandl.com